مع سورة الجمعة وبعض هداياتها الرفيعة

— ٢ —

د/ محمد حسن إبراهيم

أستاذ التفسير وعلوم القرآن
ووكيل كلية أصول الدين والدعوة
بالمنوفية

قال تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ٥ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ٥ ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ٥ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ٥ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ٥ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ٥ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) .

صدق الله العظيم

« سورة الجمعة من الآية (٥) إلى آخر السورة »

فى الجزء الأول من هذا البحث ، والذى نشر فى العدد الثانى من مجلة كلية أصول الدين بأسيوط فى يناير سنة ١٩٨٤ م ، تناولنا الآيات الأربع الأولى من هذه السورة المباركة بالتفسير والبيان .

وكان فيما بينا : فضل يوم الجمعة والذى سميت باسمـــه السورة ، ثم هدف هذه السورة ، وقلنا إنه بيان أن الأمة الإسلامية هى المختارة أخيراً لحمل أمانة العقيدة الإيمانية ، الأمر الذى يضيف عليها تكاليف لابد أن تنهض بها ، من منطلق أنها الأمة التى استجابت للرسول محمد ﷺ .

كما أن هذه السورة أيضا قد تكفلت بعلاج بعض الحالات الواقعة من تلك الجماعة المؤمنة أثناء عملية البناء النفسى لتخلصها من العوائق وترتقى بها فى مدارج الكمال .

ثم بينا معنى التسبيح واستعمالاته فى القرآن الكريم ودلالة هذا الاستعمال وكذلك معنى كل اسم من أسماء الله الحسنى التى تصدرت بها السورة المباركة والسر فى اختيار هذه الأسماء بالذات دون سواها لتكون مطلعاً ومستهلا لهذه السورة الكريمة .

ثم تعرضنا لبعث الرسول ﷺ فى الأميين ومن هم الأميون ؟

وأوضحنا الغاية من بعث هذا الرسول العظيم فى هؤلاء الأميين والتى انحصرت فى قوله تعالى (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) .

ثم بينا المراد بهؤلاء الذين لم يلحقوا بالأميين ، وكيف أنهم منهم ؟

وأوضحنا أن هذه الآية الكريمة حملت إخباراً عن غيب لم يكن قد وقع ثم وقع كما أخبرت وذلك بدخول أمم من غير العرب فى الإسلام ، ثم صارت بإسلامها من العرب ، مما يدل دلالة قاطعة أن القرآن الكريم ليس من عند محمد ﷺ وإنما هو تنزيل من حكيم حميد .

ثم ختم هذا الجزء ببيان أن إرسال محمد ﷺ إلى الأميين ومن بعدهم إلى يوم الدين إنما هو محض فضل وإحسان من الله سبحانه، وهذا الفضل والاحسان يؤتيه الله من يشاء من خلقه، وقد شاء سبحانه أن يخص به رسوله ومصطفاه (محمد بن عبد الله) ﷺ، ولن يؤتيه لأحد من بعده فهو سبحانه «يؤتى الحكمة من يشاء، كما أنه عز وجل «يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[1].

بعد ذلك نواصل حديثنا عن آيات السورة الباقية ونبدأ بالحديث عن قوله تعالى:

(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين).

بعد أن أثبت سبحانه التوحيد والنبوة فى الآيات السالفة، وذكر أن الرسول محمد ﷺ بعثه الله فى الأميين، قالت اليهود: أن الرسول لم يبعث لنا وإنما بعث إلى العرب خاصة. فرد الله سبحانه عليهم مقالتهم، بأنهم لو فهموا التوراة حق الفهم وعملوا بما فيها لرأوا فيها نعت الرسول محمد ﷺ والبشارة به وأنه يجب عليهم اتباعه.

وهذه الآية الكريمة، تفيد أن اليهود — الذين حملوا التوراة — قد انتهى دورهم فى حمل أمانة الله، حيث لم تعد لهم قلوب تحمل هذه الأمانة التى لا تحملها إلا قلوب حية فاقهه، مدركة، واعية، متجرده، عاملة بما تحمل.

فبنو إسرائيل حملوا التوراة، وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة (ثم لم يحملوها) إذ أن حملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه وينتهى بالعمل لتحقيق

---

(١) سورة البقرة ١٠٥

مدلولها فى عالم الضمير وعالم الواقع ، ولكن سيرة بنى اسرائيل كما عرضها القرآن الكريم وكما هى فى حقيقتها لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانه ولا أنهم فقهوا حقيقتها ولا أنهم عملوا بها .

ومن ثم فقد كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام وليس له من حملها إلا ما يمر بجنبيه من الكد والتعب ، فهو ليس صاحبها ، ولا شريكا فى الغاية منها .

(بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله) :

وهذه الصورة التى شبهوا بها هى صورة مزرية بائسة ، ومثل سيىء شائن ، ولكنها صورة صادقه معبرة عن حقيقه .

والمعنى ما أقبح هذا مثلا لهم ، لتكذيبهم بآيات الله التى جاءت على لسان رسوله لو كانوا يتدبرون ويتفكرون ، إذ لم يكن لهم ما يشبههم من ذوى العقول والحجا من ملك أو إنس ، بل لا شبيه لهم إلا ما هو احقر الحيوانات وأذله وهو الحمار .

وصدق الشاعر الذى يقول فى ذلك :

ولا يقيم على ضيم يراد به
إلا الأذلان عير الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته
وذا يدق فلا يرثى له أحد

وفى المراد بآيات الله التى كذب بها اليهود يرى بعض العلماء أنها دلائل الملك الأعظم على صدق رسله بوجه عام وعلى صحة نبوة محمد ﷺ

وصدق رسالته بوجه خاص ، وهو قول ابن عباس ومقاتل .

ومنهم من يرى أن آيات الله هى (التوراه) لأنهم كذبوا بها حيث تركوا الإيمان بمحمد الذى بشرت به هذه (التوراة) .

ونحن نقول إن المقام لا يمنع من ايراده المعنيين معاً ، فهم بتكذيبهم ما فى التوراة قد كذبوا آيات الله التى ساقها أدلة على نبوته ورسالته وهم فى الوقت نفسه قد كذبوا بما صاحب رسالة محمد ﷺ من آيات بينة وبراهين ساطعة على أنه ﷺ هو آخر النبيين وهو رسول الله إلى الناس أجمعين .

(والله لا يهدى القوم الظالمين) :

والمعنى أن هداية الله بعيدة كل البعد عن هؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسهم بالظلم حيث أحاطت بهم الخطيئة وإعمت أبصارهم ، وران على قلوبهم ، فلم تر نور الحق ، ولم تشعر بحجة ولا برهان ، بل هى فى ظلام دامس لا تهتدى لطريق ولا تصل إلى غايه .

وقد يسأل سائل ويقول : ما الحكمة من تعيين الحمار بالذات من بين سائر الحيوانات ليضرب به مثلا لهؤلاء اليهود ؟ .

والجواب عن ذلك كما يقول الإمام الرازى من وجوه[1] :

١ — إن الله سبحانه خلق (الخيل والبغال والحمير) وقال فى فوائدها (لتركبوها وزينة) والزينة فى الخيل أكثر وأظهر بالنسبة لراكوب والحمل وهى (الزينة) فى البغال دون، وفى الحمار دون البغال، وحينئذ يلزم أن يكون الحمار فى معنى الحمل أظهر وأغلب بالنسبة إلى الخيل والبغال وغيرهما من الحيوانات .

(١) انظر التفسير الكبير للإمام الرازى عند تفسيره لسورة الجمعة

٢ — أن هذا التمثيل لإظهار الجهل والبلادة وذلك فى الحمار أظهر .

٣ — أن فى الحمار من الذل والحقارة ما لا يكون فى الغير ، والغرض من الكلام فى هذا المقام تعيير القوم بذلك وتحقيرهم فيكون تعيين الحمار أليق وأولى .

٤ — أن حمل الأسفار (وهى الكتب الضخام) على الحمار أتم وأعم وأسهل وأسلم لكونه ذلولا سلس القياد ، لين الانقياد يتصرف فيه الصبى الغبى من غير كلفة ولا مشقة .

٥ — أن رعاية الألفاظ والمناسبة بينها من اللوازم فى الكلام ، وبين لفظى (الأسفار) ، (الحمار) مناسبة لفظية لا توجد فى الغير من الحيوانات فيكون ذكره أولى .

وهذا المثل الذى ضربه الله تعالى لليهود يلحق كل من لم يفهم معانى القرآن ولم يعمل بما فيه ولم يرعه حق رعايته وأعرض عنه إعراض من لايحتاج إليه ولهذا قال ميمون بن مهران (يا أهل القرآن : اتبعوا القرآن قبل أن يتبعكم) .

ثم قال تعالى :

« قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

والذين هادوا : هم الذين دانوا باليهودية وهى ملة موسى عليه السلام وقد نزلت هذه الآية الكريمة لما ادعت اليهود الفضيلة وقالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وزعموا أن الدار الآخرة لهم خاصة ، وأنه لا يدخل الجنة إلا من كان هودا ، فأمر النبى ﷺ أن يظهر كذبهم بأن يقول لهم : إن زعمتم إنكم أولياء لله ... الآية .

وكانت هذه من رسول الله ﷺ دعوة لهم إلى المباهلة والملاعبة ، والمعنى

(قل لهم يا محمد : أيها اليهود إن كنتم تزعمون انكم على هدى من ربكم ، وأن محمدا وأصحابه على ضلالة ، فادعوا بالموت على الفعال من الفئتين إن كنتم صادقين فيما تزعمون .

ولهذه الآية الكريمة نظير فى سورة البقرة هو قوله تعالى : (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين)(١) .

والحقيقة أن كل من دعاهم رسول الله ﷺ إلى هذه المباهلة أو هذا التحدى خافوا ونكلوا عنها ، ولم يقبلوا المضى فيها . الأمر الذى يدل على أنهم يعرفون فى قرارة أنفسهم صدق رسول الله ﷺ وحقيقة هذا الدين الحنيف ويؤيد ذلك ماحكى القرآن عنهم من تلك المعرفه فى قوله تعالى : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)(٢) .

وفى قوله تعالى : الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم)(٣) .

والحديث عن رسول الله ﷺ ودينه الحنيف الذى أرسله الله به .

ولو كان اليهود واثقين فى داخلهم من أنهم أولياء الله وأحباؤه من دون الناس ، فأى شىء إذن يخيفهم من الموت ؟ ويجعلهم أجبن خلق الله . ؟ وهم حين يموتون ينالون ماعند الله مايلقاه الأولياء المقربون ؟ فإن الحبيب يتمنى لقاء من يحب ولا يفر منه ، ويود أن يستريح عنده من كرب الدنيا وغمومها ويصير إلى روح الجنان ونعيمها .

---

(١) البقرة (٩٤) .
(٢) البقرة (٨٩) .
(٣) البقرة (١٤٦) .

ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين :

وهذه الآية الكريمة أعقبت تحديهم ودعوتهم إلى تمنى الموت لو كانوا صادقين فى ادعاءاتهم ومزاعمهم ، لتفيد أنهم غير صادقين فيما يزعمون ، وأنهم يعرفون تماما أنهم لم يقدموا بين أيديهم ما يطمئنون إليه ومايوجون الثواب والقربى عليه ، إنما قدموا المعصية التى تخيفهم من الموت وما وراء الموت ، ومن المعروف أن الذى لم يقدم الزاد يجفل من ارتياد الطريق .

يشير إلى ذلك قوله تعالى : (بما قدمت أيديهم) أى بسبب ماقدموا من الكفر وتحريف الآيات .

قال العلماء : وهذا إخبار بما سيكون فى المستقبل وما سوف يقع منهم مما يعتبر من باب الإخبار بالغيب الذى لم يكن فى وسع محمد ﷺ أن يصل إلى شىء منه إلا من عند علام الغيوب ، وهذا يعتبر أكبر دليل على صدقه فى رسالته ، ولقد وقع كما أخبر وحـــدث ما نطقت به الآيات الكريمة « ولا ينبئك مثل خبير .

ولقد قال الإمام أحمد فيما رواه عن عكرمه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار »(١) .

كما روى أن رسول الله ﷺ قال لهم « والذى نفسى بيده لايقولها أحد منهم إلا غص بريقه ، فلم يتمن أحد ذلك لعلمه بصدق رسول الله ﷺ .

ويلاحظ أن التعبير جاء هنا (ولا يتمنون أبدا) وفى سورة البقرة (ولن يتمنوه أبداً) فجاء فى الأولى نفى التمنى بدون توكيد ، وفى الثانية نفيه بالتأكيد ، وفى كلتا الحالتين وصف بالتأبيد .

(١) رواه أحمد فى مسنده جـ ١ ص ٢٤٨

يقول الإمام الزمخشرى فى تفسيره لا فرق بين (لا) ، (لن) فى أن كل واحدة منهما فى للمستقبل إلا أن فى (لن) تأكيداً وتشديداً ليس فى (لا) فأتى بها مرة بلفظ التأكيد فى (ولن) ومرة بغير لفظ التأكيد فى (ولا) من باب التفنن والتنويع فى الأسلوب الذى درج عليه القرآن الكريم . على اعتبار أن يحمل الأسلوب الخالى من التوكيد على الأسلوب الذى اشتمل على هذا التأكيد .

(والله عليم بالظالمين) وفى هذا مافيه من شديد الوعيد وعظيم التهديد الذى يستحقه هؤلاء المفترون .

ويلاحظ هنا أن التعبير القرآنى جاء على نسق يلفت النظر وهو الإظهار فى مقام الاضمار حيث قال سبحانه (والله عليم بالظالمين) ولم يقل (عليم بهم) لأنه سبق ذكرهم والحديث عنهم .

وكان ذلك بهدف التوصل إلى ذمهم والتسجيل عليهم بهـــذا الوصف الشائن الذى قطعوا فيه شوطا بعيداً وبلغوا فيه مرتبة عليا ألا وهو وصف (الظلم) ، الذى اتسمت به أفعالهم ، والتى من جملتها هذه الأفعال التى تحدث عنها القرآن ونسبها إليهم .

١ — قولهم (نحن أبناء الله وأحباؤه) .

٢ — قولهم (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا) .

٣ — قولهم (لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) .

٤ — قولهم (إن الله فقير ونحن أغنياء) والله هو الغنى الحميد .

٥ — قولهم (يد الله مغلولة) غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء .

٦ — وهم الذين تجبروا وتعنتوا وظلموا أقبح الظلم وأشنعه حينما سألوا

رسولهم موسى عليه السلام وقالوا (أرنا الله جهرة) فأخذتهم الصاعقة بظلمهم .

٧ — وهم الذين اتخذوا العجل معبودا لهم من بعد مارأوا المعجزات البينات التى تبعدهم عن طريق الشرك وتأخذ بيدهم نحو ساحة التوحيد الخالص لو كانوا يعقلون .

٨ — وهم الذين نقضوا الميثاق الذى أخذه الله تعالى عليهم وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم .

٩ — وهم الذين كفروا بآيات الله أى بكتبهم التى أنزلها الله على رسلهم فحرفوها وعبثوا بها .

١٠ — وهم الذين أغلقوا آذانهم وعقولهم وقلوبهم عن سماع دعوة الحق وقالوا (قلوبنا غلف) أى مغلفه وعليها أغطية فلا تعى ولا تفهم ماتقوله لهم رسلهم ، يقصدون بذلك رد حجة الرسل .

١١ — وهم الذين قتلوا أنبياءهم ورسل الله إليهم بغير حق أو موجب لهذا القتل إلا العدوان والظلم .

١٢ — وهم الذين قالوا على (مريم) بهتانا عظيما حينما رموها بيوسف النجار ويكفى أن الله سبحانه طهر ساحة (مريم) بوصف قولهم هذا بالبهتان وهو أشنع من الكذب وأقبح .

١٣ — وهم الذين تباهوا وتفاخروا بما لم يفعلوا ، وقالوا فى جرأة منكرة (إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) فكذبهم القرآن الكريم بقوله (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) .

١٤ — وهم الذين صدوا ومنعوا كثيرا من خلق الله عن سبيل الله وصراطه المستقيم .

١٥ — وهم الذين أخذوا الربا وقد نهوا عنه فى كتب الله المنزلة إليهم .

١٦ — وهم الذين أكلوا أموال الناس بالباطل .

إلى غير ذلك من الجرائم والمآثم والكبائر التى تكفى احداها لكى تطبع فاعلها بالظلم البين والجور الفاضح ، فكيف باجتماع هذه الطامات من الفظائع والقبائح والمنكرات التى وصف بها كتاب الله الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بل هو تنزيل من حكيم حميد .

وكل ذلك يبين مصداق وصف الله تعالى لهم (بالظالم) الذى يقرر مضمون ما قبل هذا الوصف أى أن الله عليم بهم وبما صدر منهم من فنون الظلم والمعاصى فى الدنيا المفضيه إلى أفانين العذاب والنكال فى الآخرة .

كما أنه سبحانه عليم بما سيكون منهم من الاحتراز عما يؤدى إلى ذلك فوقع الأمر كما أخبر سبحانه ، فلم يتمن أحد منهم موته .

قوله تعالى :

(قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

وفى هذه الآية الكريمة يأمر الله رسوله الكريم أن يقرر لهم حقيقة الموت وما بعد الموت حيث يقول سبحانه (قل) لهم يارسول رب العالمين إلى الناس أجمعين منذراً ومحذراً وأن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم) .

وهى حقيقة كثيراً ما ينساها الناس فى زحمة الحياة . بينما هى تلاحقهم أينما كانوا ، وهذه الآية تناظر قوله تعالى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة)[1] .

---

(١) سورة النساء (٧٨) .

ألا إن هذه الحياة بلاشك إلى انتهاء ، والبعد فيها عن الله سبحانه ينتهى بالرجعة إليه تعالى ، أى أنه لا ملجأ منه إلا إليه ، والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنان لامحالة فلا مهرب ولافكاك منهما بحال من الأحوال .

وقد جاء فى معجم الطبرانى من حديث معاذ بن محمد الهنلى عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعا : مثل الذى يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين ، فجاء يسعى حتى إذا أعيا وانبهر دخل جحره ، فقالت له الأرض: ياثعلب دينى فخرج له حصاص(١) فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات »(٢) .

وفى التعبير لقوله تعالى (فإنه ملاقيكم) أى لاحقكم ومدرككم لامحالة ، لإفادة التأكيد وحتمية الوقوع من غير صارف ولا مانع ، والفاء فى قوله (فإنه) تتضمن الموصول معنى الشرط أى (إن فررتم من الموت فإنه ملاقيكم) كما أن العطف (بثم) يفيد أن المقام فى البرزخ إنما هو أمر مهول لابد منه وأنه سيمتد طويلا إلى أن تقوم الساعة ، ولذلك عبر عنه بأداة التراخى فقال سبحانه :

(ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة) وهو الله العليم بظواهر الأمور وبواطنها ويدخل فى ذلك دخولا أوليا عليه بما تنطوى عليه نياتكم ودخائلكم التى منها كراهيتكم الموت وعدم وقوع تمنيه منكم ولوبالسنتكم ، بل وقع وظهر فراركم منه باطنا وظاهرا ، بينما هو يلاحقكم ويطاردكم ولابد مدرككم وواقع بكم إن عاجلا أو آجلا .

ولم يكن فرارهم من الموت إلا مخافة أن ينزل بهم فيؤخذوا بأعمالهم

---

(١) الحصاص : شدة العدو وحدته .

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ٨ ص١٤٥ .